

صفحات من لبنان

بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمة

مئوية لبنان الكبير [6]
زيارة المفوض السامي الفرنسي
الى الشوف وقصر المختارة

المسيو غبريال بيو هو المفوض السامي الثامن في عهد الانتداب الفرنسي، وقد عينته حكومته لإدارة سياسة البلدان الواقعة تحت وصايتها: سوريا، ولبنان، وبلاد العلويين وجبل الدروز. تميز بيو بالهدوء، والرصانة، ورهافة الحس ودقة النظر كما يتبين من كتاباته، وهو بروتستانتي المذهب. قام بأعداد المشروعات المفيدة من زراعية، وصناعية، وأدبية وسياسية، ولكن الحظ لم يحالفه في إنجازها بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية، التي حدت من نشاطه وافقدته بعض سلطته على مرؤوسيه



المفوض السامي الفرنسي المسيو غبريال بيو.

فوق جزيرة صقلية، فعينت الحكومة الفرنسية الجنرال دانز لهذا المنصب الخطير، وعاد بيو الى فرنسا بعد ان قضى في بلادنا اكثر من سنتين يدير السياسة في صعوباتها ومعضلاتها متفقدا ومشجعاً. ولم تقتصر زيارته لها على ما يتعلق بمهمته كممثل لفرنسا فحسب، بل كأديب واثري يهتم بمخلفات الاقدمين ودرس توارخهم كما كثيرون من مواطنيه العلماء مثل رينان، وديسو، وكونتينو وغيرهم. بمساعدة بعض المقربين واصحاب الاختصاص، وضع كتاباً ضمنه انطباعاته ومشاهداته وبحوثه الاثرية مضافة الى اهتماماته السياسية. الكتاب يحمل عنوان "سنتان في بلدان المشرق - ذكريات من سوريا ولبنان 1939 - 1940" - دار النشر هاشيت - وهو 248 صفحة في اثني عشر فصلاً. نختار منها قسماً (مترجماً) من النبذة التي كتبها عن زيارته لمنطقة الشوف واجتماعاته مع شخصياتها البارزة عهدذاك.

قال المؤلف ما ترجمته:
"قادنتي (رحلة) اخرى الى الشوف، وهي المنطقة الاكثر وعورة في لبنان. كانت في العام 1860 مسرحاً لمذابح فاحشة، فاحتلته جيوش الجنرال دو بوفور، ولم يبقَ من اثر للحملة العسكرية هذه في بتدين، وسط اشجار الزيتون والسنديان، سوى مقبرة عسكرية صغيرة تضم بضعة مدافن مجهولة اسماء اصحابها. وُضعت فوقها الزهور. وفي دير القمر اروني في الكنيسة المارونية لوحة تقوية قليلة الرونق، وهي تقدمه شخصية من الامبراطور نابوليون الثالث الى مسيحي تلك البلدة الصغيرة التي تأثرت اكثر من غيرها بهذه الاحداث. وذكرى

تلك المنازعات غابت تماماً عن الاذهان، غير ان بعضاً من معاويني، الذين تأثروا بتحذيرات دوائر المخابرات، ما برحوا يقولون لي: "كن حذراً في الشوف". ولكن يوم زيارتي للشوف كان الوفاق والسلام سائدين في المنطقة. وفي دار قصر بتدين القديم، حيث استقبل الامير بشير اللادي استير استهوب والمسيو دو لامارتين، كان مئات من رجال الدروز والموارنة متجمعين وهم يلوحون بالاعلام هاتفين: "فلتحي فرنسا". ومن اعلى السلم، وتحت صف من الاعمدة المتناسقة، خاطبتهم بحماسة.

من بعدي تكلم رئيس اساقفة الموارنة، وشيخ عقل الدروز وقاضي السنة، وجميع هؤلاء الثلاثة، بملابسهم السود، ولحاهم الفضية اللون، كانت تجمعهم عواطف واحدة في محبة فرنسا. اما الاسقف الماروني، المونسنيور بستاني، فقد اقتادني الى مقره، وهو قصر صغير تركي الطراز، تجاوره اشجار السرو، ونافورة مياه صافية كالبلور تترقق في بستان غني بالاداليا والمعربشات. وقد شربنا قدراً من شراب الجوز ونحن جالسون على مقاعد من المخمل بلونها الرماني تحت انظار القديسة تريزيا من مدينة ليزيو. والمطران بستاني شيخ وسيم، ذو خلق



الست نظيرة جنبلاط.

كريم ومستقيم حبه الى الجميع، والدروز محضونه، كما ابناء رعيته، الاحترام والمحبة. وجاء دور شيخ العقل في استقباله لي في بيته في بعقلين، وقد اجتمع فيه اقرباؤه وانصاره، فشربنا انخاباً من شراب "الليموناضه" الممزوج بماء زهر البرتقال. وهذه القرية كانت، في نظر الدوائر المختصة، مركزاً مخيفاً لكل انتفاضة



عين بعقلين الاثرية.

ممكنة الحدوث، ولكنها كانت، يوم زيارتي لها، على اتم ما يكون من الهدوء والانس. وعند ظهر ذلك اليوم نزلت مع صاحبي السيادة، الماروني والدرزي، ضيوفاً على الاميرة الجنبلاطية في حصنها في المختارة. والجنبلاطيون يشكلون احدى الاسر الدرزية الاقدم والاقوى في لبنان. السيدة نظيرة، التي فقدت زوجها عن ولدين قاصرين، ابن وابنة، استلمت زمام البيت الجنبلاطي بجرأة، اذ ليس في بلاد الدروز تزمت حول المرأة كما في المجتمع السنّي. وبرهنت السيدة نظيرة على انها زعيمة ماهرة ونشيطة، ولم تجد فرنسا افضل من ان تمنحها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس الذي كانت تزين به ثوبها الاسود يوم الاستقبال. لكن الجموع كانت كثيرة بحيث لم تتمكن معها الاميرة من السفور، ائماً، في اثناء الغداء، لم يتخذ الحجاب الاسمة رمزية، فكان يرتفع او يسدل بصورة متقطعة. قصر المختارة بناية قديمة عالية، حجارتها جميلة، ذات ابراج وسطوح يطول الحصار فيها اذا اقتضى الامر. في صالة كبيرة، ذات صف من الاعمدة، رأيت سجادة منسوج عليها رسم قصة من قصص الف ليلة وليلة. اما الاثاث فانه يدل على مصنوعات عصرية الذوق، وهي فئات فئات. وردهة الطعام من طراز هنري الثاني. ولائحة الاطعمة سجلت طعاماً من مسحوق لحم الحمام. وهناك خدم قدموا لنا قالباً من الفطير المحشو بمسحوق اللحم.. اطارت الاميرة، بضربة من سكينها، غطاءه. ففرت منه حمامة بيضاء تصفق بجناحيها محومة فوق المائدة. ولما جاء دور الفاكهة رفعت الاميرة كأساً مملوءة ماء وشربت على شرف فرنسا، مؤكدة انني يمكنني الاعتماد على خدماتها حتى "العسكرية" منها، بينما كانت عيناها السوداوان تلتصقان كحبات الماس. اما زوجتي فكانت جالسة قبالة الاميرة، بين رئيس الاساقفة الماروني وشيخ عقل الدروز. وعلى عنق كل منهما ربطة وسام جوقة الشرف.

وهكذا كان الاتحاد المقدس تاماً، ولا شيء اقلق الراحة طوال الحرب".